

الحلقة الرابعة

الرسالة إلى رومية

أنوار كاشفة

صديقي المستمع، مازلنا نتأمل في الأصحاح الأول من رسالة الرسول بولس إلى المؤمنين في مدينة رومية أو روما. هذه الرسالة التي تعتبر من أسفار العهد الجديد من الكتاب المقدس.

وكنا ذكرنا في اللقاء الماضي أن الرسول بولس بعد أن تحدث عن بر الله المعلن في الإنجيل، انتقل للحديث عن الوسائل الأخرى التي يحاول بها الإنسان تبرير نفسه. فتكلم أولاً عن الوثنيين في أيامه الذين أدى تجاهلهم لوجود الله الخالق إلى وقوعهم في خطايا وآثام كثيرة وليس هذا فحسب بل إلى استحقاقهم لغضب الله ودينونته.

وقد توقفنا عند العدد الثامن والعشرين بقول الرسول بولس عن الوثنيين وناكري وجود الله: "وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق". وهنا عدّد الرسول بولس الخطايا التي يفعلها هؤلاء الناس البعيدين عن الله فقال في العدد التاسع والعشرين: "مملوئين من كل إثم وزنا وشر وطمع وخبث مشحونين حسداً وقتلاً وخصاماً ومكراً وسوءاً". وتابع الرسول بولس في العديدين ٣٠ و ٣١: "تمامين مفترين مبغضين لله ثالبيين متعظمين مدّعين شرورا غير طائعين للوالدين. بلا فهم ولا عهد ولا حنو ولا رضى ولا رحمة". إنها بالفعل خطايا وآثام يقوم بها أو يبعثها كل إنسان بعيد عن الله. وهي خطايا واضحة ولا تحتاج إلى شرح، لكنها تؤكد في نفس الوقت مدى عبودية الإنسان للخطية.

وختم الرسول بولس الأصحاح الأول وحديثه عن هؤلاء الوثنيين بالقول في العدد ٣٢: "الذين إذ عرفوا حكم الله أن الذين يعملون مثل هذه يستوجبون الموت لا يفعلونها فقط بل أيضا يسرون بالذين يعملون". أليست هذه حقيقة كل من يرفض الله والشرائع التي وضعها للإنسان؟ فهو بالرغم من معرفته لعقاب الله يشجع على الخطية ويفرح بكل من يفعل الإثم. أجل أعزائي يحاول كل من يرفض الله أن يبهر نفسه بادعاءات باطلة، وبالتكبر على الله الخالق. فتكون النتيجة أنه يصبح شاء أن أسيروا لخطايا وآثام عديدة، ويغدو بالتالي مستحقاً لدينونة الله.

لكن هل إن الوثنيين وناكري وجود الله هم وحدهم يستحقون دينونة الله؟ وماذا عن الفئة الثانية التي كانت موجودة في أيام الرسول بولس؟ أي فئة اليهود التي كانت تعتبر نفسها فئة متدينة تؤمن بوجود الله الخالق، وتدّعي أنها شعب الله المختار وتسلك بموجب شرائعه؟

نعم هذا صحيح. ولهذا انتقل الرسول بولس في الأصحاح الثاني للحديث عن هذه الفئة بالذات، وأنها أيضا بحاجة لتبرير الله كفتة الوثنيين، وإلا وقع عليها غضب الله ودينونته. وبكلمة أخرى أراد الرسول بولس التأكيد أنه لا يوجد عند الله فرقا أو محاباة بين إنسان وآخر، لأن المهم عنده هو إدانة كل من يخطئ سواء كان وثنيا أم يهوديا متدينا، إذ ما نفع التدين إذا لم يستطع أن يجعل الإنسان يبتعد عن طريق الخطية والإثم ويسلك في طريق الصلاح؟

ولهذا نجد الرسول بولس يبدأ الأصحاح الثاني بالقول: " لذلك أنت بلا عذر أيها الإنسان كل من يدين. لأنك في ما تدين غيرك تحكم على نفسك. لأنك أنت الذي تدين تفعل تلك الأمور بعينها." كانت مشكلة اليهود وهي مشكلة كل متدين يحاول تبرير نفسه، أنهم ينظرون للآخرين من غير المتدينين باستعلاء. ويوجهون لهم الإدانة بسبب أفعالهم الشريرة. لكنهم يتجاهلون في نفس الوقت أنهم هم أنفسهم يقومون بنفس هذه الأعمال، إذ هم عاجزون عن فعل الصلاح. وبذلك يحكمون على أنفسهم بالإدانة ذاتها التي وجهوها نحو الآخرين.

ولهذا تابع الرسول بولس في العدد الثاني قائلا: " ونحن نعلم أن دينونة الله هي حسب الحق على الذين يفعلون مثل هذه." أي إن دينونة الله هي عادلة وبحسب الحق ولا بد أن تقع على كل من يفعل الخطية. لكن ألا يشفع كون الإنسان متدينا ويقوم بالفرائض الدينية ألا يشفع به أمام الله؟ بكل صراحة نقول كلا. ولقد كان هذا هو الافتراض الخاطئ الذي تبناه اليهود ويتبناه اليوم الكثيرون من المتدينين. الافتراض أن تدينهم وممارستهم للشعائر الدينية سينجيهم من دينونة الله.

هذا صحيح، لأن الرسول بولس أجاب على مثل هذه الافتراضات في العدد ٣ عندما قال: "أفتظن هذا أيها الإنسان الذي تدين الذين يفعلون مثل هذه وأنت تفعلها أنك تنجو من دينونة الله." إن عدالة الله تقضي كما ذكرنا إدانة كل من يخطئ بغض النظر عن كونه يهوديا أم متدينا أم وثنيا . ولا يستطيع أحد بالتالي أن ينجو من دينونة الله.

لكن هذا لا يعني أن الله لا يقبل الآن كل من يأتي إليه تائبا عن ذنوبه. ولهذا تابع الرسول بولس قائلا في العدد الرابع قائلا: "أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة." أجل أعزائي إن الله يتأني علينا جميعا بالرغم من خطايانا الكثيرة، وهو يعاملنا الآن بلطف ومحبة لعلنا نتوب ونرجع إليه. فهل نتجاوب معه يا ترى؟ وهذه الآية تذكرنا بآية أخرى ذكرها الرسول بطرس في رسالته عندما كتب يقول: " لكنه- أي الرب- يتأني علينا وهو لا يشاء أن يهلك أناس بل أن يقبل الجميع إلى التوبة." (٢بطرس ٣: ٩)

لكن إذا لم يتب الإنسان فإن النتيجة ستكون وبالا عليه. ولهذا قال الرسول بولس في العدد الخامس: "ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تذخر لنفسك غضبا في يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة." نعم إن الإنسان الذي لا يتوب بالرغم من تأني الله عليه يكون كمن يجمع لنفسه غضبا. فهل يرغب أي منا أن يخزن لنفسه غضب الله؟ هذا الغضب الذي سيُعلن في يوم دينونة الله العادلة.

ثم عاد الرسول بولس في العدد السادس للتأكيد أن الله "سيجازي كل واحد حسب أعماله." أي لا يوجد فرق عند الله، فكل من يفعل الخطية لابد أن يدان. يهوديا كان أم وثنيا أم متدينا.

أما إذا تجاوب الإنسان مع لطف الله عليه وتاب، فإن النتيجة ستكون بركة كبيرة عليه. كتب الرسول بولس في العدد السابع يقول: "أما الذين بصبر في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء فبالحياة الأبدية." وهل توجد بركة أعظم من أن يحصل الإنسان على تبرير الله لخطاياه وأن ينال الحياة الأبدية؟ ولهذا قال الرسول بولس عن الذين يتوبون أنهم يطلبون المجد والكرامة. فهل تراك تطلب هذا المجد يا صديقي؟

وعلينا أن نلاحظ أن المقصود بالعمل الصالح هنا، العمل الصالح الذي يأتي نتيجة للتوبة الصادقة. وليس العمل الصالح الذي نهدف منه الحصول على تبرير الله لخطايانا. لأن الرسول بولس يعلم وخاصة في رسالته إلى رومية كما سمعنا في لقاء سابق، أن الله يبررنا بالإيمان. الإيمان برب الله الذي أعلن في المخلص المسيح الذي قام بعمل الفداء لتبريرنا. ولقد أكد المخلص المسيح أن البداية تكون بالتوبة وتغيير القلب من الداخل. فإذا لم يغيّر الله قلبي الفاسد من الداخل فمن المستحيل عليّ أن أبتعد عن الشر، وأقوم بالأعمال الصالحة.

وكان الأمر بحاجة إلى تأكيد أقوى بالنسبة لدينونة الله تابع الرسول بولس في العديدين الثامن والتاسع قائلا: "وأما الذين من أهل التحزب ولا يطاوعون للحق بل يطاوعون للإثم فسخط وغضب. شدة وضيق على كل نفس إنسان يفعل الشر اليهودي أولا ثم اليوناني." هذه النتائج الوخيمة لابد أن تقع على كل من يفعل الشر ويرفض التوبة. لكن لماذا قال الرسول بولس أن هذه العواقب ستأتي على اليهودي أولا ثم اليوناني؟ أعتقد أن الرسول بولس أراد أن يؤكد لليهود في أيامه مرة أخرى، أن كونهم يهودا لا ينجبهم من دينونة الله إذا فعلوا الشر. لا بل سيتعرضون لغضب الله أولا لأنهم يعرفون أكثر. أي أنه عندما أعرف أكثر فلا بد أن أتحمّل مسؤولية أكبر. ولهذا قال أن الدينونة ستأتي على اليهودي أولا.

أجل، لكن الرسول بولس في نفس الوقت امتدح الشخص الذي يتوب. فقال في العدد العاشر: "مجد وكرامة وسلام لكل من يفعل الصلاح اليهودي أولاً ثم اليوناني." وهو أكد بذلك أنه لا يوجد فرق عند الله، إذ الجميع بحاجة إلى التوبة. ولهذا نجده يلخص في العدد الحادي عشر ما يود إيضاحه فقال: "لأن ليس عند الله محاباة." نعم أعزائي إن الله هو إله عادل، وهو لا ينظر للوجوه ولا يحابي أحد عن أحد، بل يحكم بإنصاف. فهل تأتي صديقي إلى الله تائباً عن ذنوبك باسم الفادي المسيح؟ وهكذا تتال رضى الله.